الـخـاتـمـة

الخاتمة

وبَعْدُ:

فهذه الدِّراسة التي أَبْحَرَتْ في كُتُب ومُؤَلَّفات التَّوحيدي وغَاصَت في نُصُوصه، حَاوَلت أنْ تَكْشِف مَلامح تلك الاتِّجاهات النَّقدية الثَّلاثة (اللُّغوية والجَمالية والمَوْضُوعاتية)، لِتَنْتَظِم من خلالها آراءُ وأفْكار التَّوحيدي النَّقْدية في أُطُرٍ مُحَدَّدة، بدلاً مِنْ أنْ تُطْرَح هذه الآراءُ والأفكارُ مُتناثرةً بدون روابط أو سِياقات فِكْرية ونَقْدية.

ومِنْ خِلال ما تَقَدَّم في هذه الدِّراسة، تَجَلَّى لنا بِوضوح دَوْر التَّوحيدي البَارِز في الفِكْر النَّقدي العَربي، بِداية من الاتِّجاه اللُّغوي في النَّقد، حيث تَعَرَّفنا على تَاريخ ونَشْأة هذا النَّقد وبِدايَاته قَبْل القَرْن الرَّابع الهِجْري الذي عَاشَ فيه التَّوحيدي، وصِلَةُ التَّوحيدي بالنَّقد اللُّغوي وباللُّغة عامَّة، فَظَهَرت مَجْهُودات التَّوحيدي في مَجال النَّقد اللغوي، واتَّضَحَت مَظاهِر الفِكْر اللُّغوي عند التَّوحيدي التي اسْتَنْتَجَناها مِن خِلال ما كَتَبَه التَّوحيدي في اللُّغة وقَضايا النَّقْد اللُّغوي.

إضافة إلى البَحث في بَعْض قَضايا النَّقد اللُّغوي التي طَرَحها التوحيدي في مُؤَلَّفاته، وعلى رَأْسِها قَضِية اللَّفظ والمَعْنى، وقَضِية اللُّغة العَادية أو لُغة الكَلام، والفَرْق بينها وبين لُغة الأدب، وما تَفَرَّع عنها من البَحْث في لُغة النَّثر ولُغة الشِّعر، ثم قَضِّية الشَّفاهِيَّة والكِتابِيَّة كَمَظْهَرَيْن من مَظاهر التَّعبير اللُّغوي، ثم الحَديث عن مُسْتَوَيات النَّقد اللُّغوي كما طَرَحَها التَّوحيدي، وهي مستويات عديدة ومتنوعة بدأت من المُسْتَوى الصَّوْتي للحُروف والأَصْوات اللغوية، ومروراً بالمُسْتَوى المُعْجَمي بكل تَنَوُّعاته، والمُسْتوى الصَّرْفي البِنَائي بما فيه من صِيَغ واشتقاقات، والمُسْتَوى الدِّلالي بِقَضاياه المُخْتلفة، ثم المُسْتوى النَّحوي والتَّركيبي، وصُولاً إلى المُسْتوى العَرُوضي الخَاص بالأوزان والقَوافي، وأَظْهَر البَحث في هذه المُسْتَويات أنَّ التَّوحيدي كان نَاقداً لُغَوياً، يَمْلُك من البراعة والقُدرة اللُّغوية ما جَعَله يَتَعامل مع

كلِّ مُسْتويات النَّقد اللُّغوي التي طُرِحت في هذه الدراسة.

وتَجَلَّى لنا من خلال بَحْث الاتِّجاه الجَمالي في النَّقد الأَدبي لَدى التَّوحيدي، أنَّه لا يُمْكِن فَهْم الفِكْر الجَمالي عند التَّوحيدي إلا بِدِراسة مقولاته التَّنْظِيرية في علم الجَمال من ناحية، ثم دراسة أُسْلُوبه وطَرِيقته في الكِتابة والتَّرَسُّل من ناحية أخرى، لأنَّ التَّوحيدي حَاول إلى حَدٍّ كَبير صُنْع مُوَاءمة وتَوَافق بَيْن ما يَكْتُب بِه ومَا يَكْتُب عَنْه، بَيْن ما يَطْرَحُه مِن آراء، وبَيْنَ طَرِيقَته في طَرْح الآراء، وهذا التَّوافق سِمَةٌ أساسِية في فِكْر التَّوحيدي الجَمالي، فهو لَمْ يَنْقَطِع في مُمارسته لِلكِتابة عَمَّا آمَنَ بِه أو دَعَا له مِن آراءٍ وأفكارٍ تَخُصُّ جماليات الكتابة.

ثم جَاء الحَديث عن الاتِّجاه المَوْضُوعاتي في النَّقد الأدبي، ذلك المُصْطَلح الحَديث الذي أَظْهَرت الدِّراسة صِلَتَه الحَمِيمة والقَوِية بِنُصُوص ومَقُولات من النَّقد الأَدبي العَربي القَديم، وخَاصة نُصُوص التَّوحيدي الثَّرية، والتي الْتَقَتْ في كَثيرٍ من المواضع - كما مَرَّ في الدراسة - مع أَشْهَر مَقُولات نُقَّاد المَوْضُوعَاتية من الغَرْبِيين والعَرب على السَّواء، مما جَعَلَه في تَصَوُّرنا نَاقِداً مَوْضُوعَاتياً من طِرازٍ فَرِيد.

وإضَافة لِكُلِّ ما تَقَدَّم، فَقَد بَرَزَتْ عِدة نَتَائج من خِلال هذه الدِّراسة، نَذْكُر منها ما يأتي:

انْطَلَق التَّوحيدي في تلك الاتِّجاهات النَّقدية الثَّلاثة التي رَصَدَناها لَه في كُتُبه ومُؤَلَّفاته من نَظْرَة تَكَاملية شُمُولية، فقد كان هناك وَشَائج وعَلاقات واضِحة وجَلِيَّة بَيْن الاتِّجاهات النَّقدية الثَّلاثة التي دَرَسْناها للتَّوحيدي (الاتِّجاه اللُّغوي)، و(الاتِّجاه الجَمالي)، و(الاتِّجاه المَوْضُوعاتي)، في الفُصُول الثَّلاثة لهذه الدراسة، وذلك على الرُّغم مما يَبْدُو من تَبَاين واخْتلاف بين هذه الاتِّجاهات، في مُنْطَلقاتها ومُصْطَلَحاتها ومَفَاهيمها وأَدَواتها.

إلا أنْ المُتَأَمِّل فيما يَرْبط بينها سَيَجِد أنه لا انْفِصال بين هذه الاتِّجاهات في فِكْر التَّوحيدي وفي آرَائِه ونَظَرياته، بل هي مُنْسَجِمة ومُتَآزرة أَشَد ما يَكُون التَّآزر، ولَيْس ذلك لَدى التَّوحيدي فَحَسْب، بَل لَدَى عامَّة النُّقاد القُدامى منهم والمُحْدَثين،

إذ أنَّ الاتِّجاه اللُّغوي بما لديه من مُسْتَويات لُغوية يَمْنَح الحُضُور الحَقيقي لِبناء النَّص وبِدونه لنْ يَتَجَسَد النَّص الأَدَبي أو يُصْبح واضِحاً يُمْكن تَذَوُّقه أو اسْتقباله والتَّعرف على جَمالياته، والتَّفتيش عما فيه من قِيم جَمالية وتَعْبِيرية، ومن هنا يَأْتي دَوْر الاتِّجاه الجَمالي سَواء فِيما يَخُصُّ عَمَلية الإِبْداع التي يَطَّلِع بها المُبْدع، أو عَمَلية التَّلقي التي يَطَّلِع بها المُتَلَقي والنَّاقد، ومن خلال البَحث الجَمالي في البِناء اللُّغوي لابد من التَّفْتِيش والبَحْث عن المَوْضوع والمَضْمون الذي يَحْمِله هذا النص، وهو ما يَقُوم به الاتِّجاه المَوْضُوعاتي كما رَأَيناه في النَّقد الأدبي الحديث، وفي فِكْر التَّوحيدي ذاته.

ولهذا فإنَّ أَهَم ما اسْتَخْلصناه من هذه الدِّراسة، هو أنَّ النَّاقد الأَدَبي المُتَمَيِّز عليه أن يكون مَرِناً في تَعامله النَّقدي مع النُّصوص الأدبية، وأن يَأْخُذ قَدْر المُسْتطاع من كلِّ المَناهج والاتِّجاهات الأدبية، وأنْ يَتَخَلَّى عن صَرَامة المَنْهَج ولُزُومِية الاتِّجاه الذي يَتَّبِعه أو يَمِيل إليه، لأنه ما مِن اتِّجاه واحد - أَيَّاً كانت أهميته وقِيمته وتَّعَدد أَدواته - يَسْتطيع وَحْدَه سَبْر أَغْوار النَّص الأَدبي بِمَعْزل عن بَقِيَّة المَناهج والاتِّجاهات.

وحتى عَمْل التَّوحيدي في نَقْدِه اللُّغوي جاء شُمُولياً ومُتَكاملاً، فإنَّ تَنَاوُل التوحيدي للمُستوى الصَّوتي للكَلمة - كما مَرَّ بنا - وبَحْثَه في كَيْفية صُدُور الصَّوت اللُّغوي، وذِكْر بَعْض أَعضاء النُّطق وصِفَات وخَصائص بَعض الحُروف والأَصْوات، وتَأْثير ذلك على ثِقَل الكَلِمة أو خِفَّتها وقَبُول المُسْتَمع لَها أو نُفُوره منها، إضافة إلى ما تَنَاوَله في المُستوى المُعْجَمي، من خلال تَغْطِيته لكُلِّ جَوانب العَمَل المُعْجَمي كافة من لُغَوية ودِراسة لِلغريب ودراسة معجمية للأَمثال والحِكَم والمَجازات والاستعارات، إضافة إلى أَلفاظ الحَضارة وواقع الحَياة الاجْتماعي، وما تَنَاوَله في المُستوى الصَّرْفي والتَّركيبي والدِّلالي... كل ذلك يُمَثِّل حَجَر الزَّاوية في النَّقد اللُّغوي، وتَفْسِير النَّص وإضاءته من كل جوانبه.

وامْتَدَّ المَنْحى الشُّمولي التَّكاملي في فِكر التَّوحيدي النَّقدي إلى قضايا

الاتجاهات النقدية الثلاثة، ولهذا خَتَمنا الفَصْل الأول بالحَدِيث عن نَظَرية النَّظْم ومَدَى تَكامل المُسْتَويات اللُّغوية في التَّحْليل اللُّغوي للنَّص الأدبي، بحيث يَتَقَاطَع مع نَظَرِية النَّظم التي طَرَحَها الدَّرس النَّقدي في القَدِيم والحَدِيث، وخَتَمَنا الفَصْل الثَّاني أيضاً بالحَدِيث عن وِحْدَة الفُنُون اللُّغوية وغَير اللُّغوية في إطارٍ جمالي مُتَقَارب ونَسَق فِكْري مُتَكَامل، وجَرَى الحديث في الفصل الثَّالث كذلك على وِحْدة مَوْضُوعاتية وفِكْرية تَنْتَظم من خلالها الموضوعات المختلفة التي طرحها التوحيدي في مؤلفاته.

وقد كان هناك جملة أسباب أَوْجَدت تلك النظرة التكاملية وذلك المَنْحى الشمولي التي مَيَّزت فكر التوحيدي، وكان السبب الرئيس في ظهورها بهذا الشكل موسوعية التوحيدي الثقافية والمعرفية والتي جعلته يأخذ من كل علم بطرف ومن كل فن بقدر، حيث امتزجت كل تلك العلوم والمعارف والفنون في ذهن التوحيدي المتقد.

وممَّا اسْتَخْلَصناه أيضاً من خلال هذه الدِّراسة هو تلك القُدرة النَّقدية، والمَلَكة الذَّوقية، والأسلوب البياني، والطريقة ذات العُمْق الفِكري والفَلسفي التي تَمَيَّز بها التوحيدي، وجَعَلَتْه في مَصَاف النُّقاد والمفكرين والأدباء العِظام الذين جَاد بهم تاريخنا وتُراثنا الأدبي والنَّقدي القديم عامة، ونُقاد ومُفكري وكُتَّاب القرن الرابع الهجري على وجه الخصوص، حيث تُعَبِّر تلك الاتِّجاهات النَّقدية التي رَصَدَناها عن اتِّجاهات القرن الأدبية والنَّقدية أيضاً، فقد كان التَّوحيدي وبِحَق - كما ظَهَر لنا من خلال تلك الدراسة - مُعَبِّراً عن ما كان يَمُوج به هذا القَرْن من تياراتٍ ومَذاهبَ واتِّجاهات.

وثَمَّة نتيجة على درجة كبيرة من الأهمية ظهرت من خلال قِراءة نصُوص التَّوحيدي المُتَنَوِّعة والمُتَعَدِّدة التي جاءت في سياق الدراسة، وهي أنَّ التَّوحيدي من خلال ما رأيناه في الاتِّجاهات النَّقدية الثَّلاثة قد تَنَاوَل مَفَاهِيمها بِشَكْلٍ نَظَري وتَطْبِيقي معاً، وهذا ما رأيناه في نَقْدِه اللُّغوي من خلال قَضِية اللَّفظ والمَعنى، ومن

خلال الحديث عن التَّفْرِيق بين الكلام العادي والأدبي، ومن خلال نَقْدِه الجَمالي، وكذلك من خلال نَقْده المَوْضُوعَاتي، وذلك على الرَّغم من تَهَيُّبِه للنَّقد عامة، وَوَصْفِه لِصُعُوبة (الكَلام عَلَى الكَلام)، إلا أنَّه عَبْر مَقُولاته النَّظَرية وإشاراته العَمَلية على النُّصوص الشِّعرية والنَّثْرية مَارَسَ نَقْداً تَطْبِيقياً عَالي المُسْتوى.

وقَد تَفَرَّد في طَرْح بَعْض القَضايا الأَدَبية والنَّقدية، ومِنها على سَبيل المِثال تَرْسِيخه وتَأْصِيله وكِتَابَته في فَنِّ (الهِجاء النَّثري)، الذي جَعَلَه مُعَادِلاً أَدبياً وفَنِّياً للهِجاء الشِّعري، وله نفس الأثر، من خلال كتابه (أَخْلاق الوزيرين)، ومن ذلك أيضاً تَمَيُّزه فِيما يُمْكن أن يُسَمَّى (الأدب النَّثْري الصُّوفي)، والذي يُعَدُّ أيضاً فَنَّاً قائماً بِذَاته في مُقابل الأَدب الشِّعري الصُّوفي الذي شَاعَ وانْتَشَر في أشعار الزُّهاد والمُتَصَوِّفة، وتَفَرُّده بِطَرْح الكثير من القَضايا النَّقدية بِعُمْق شَدِيد وَوَعْي كَبير، مِثل حَدِيثه عن التَّفْرقة بين (لُغَة الأَدب ولُغة الكَلام العَادي وما فَوق العادي)، والفُرُوق بين (النَّظْم والنَّثر)، وإشاراته المُتَكَرِّرة إلى (وِحْدَة الفُنُون) وتَكَامُلها في نَسَقٍ مَعْرفي وَوُجداني، وغَيْرها من القَضايا المُتَمَيِّزة التي طَرَحها التَّوحيدي نَقْدياً وفِكْرياً، وَوَرَدَت في سِياق هذه الدراسة.

ومن النَّتائج التي تَوَصَّلت إليها الدِّراسة هي التَّأْكيد على إمْكَانية رَبْط التُّراث الفِكْري العَربي الثَّري عامَّة، والتُّراث الأدبي على وَجْه الخصوص، بِكَثِير مِمَّا يُطْرَح على السَّاحة الأَدَبية والنَّقْدية الغَربية الحَدِيثة والمُعَاصرة، وهذا يُعَزِّز قُدْرة الدِّراسات العَربية الحَديثة عَلَى اسْتِنْطَاق الماضي المُضِيء، واسْتِخْراج مَكْنون التُّراث العَربي القَديم وإظْهَاره في صُورَته اللاَّئقة التي لا تَقِلُّ بِحالٍ من الأَحْوال عن مَثِيلاتها في الغَرْب، وهذا ما بَدا واضِحاً في سعينا لِتَقْوية هذه الرَّوابط، كما في الفَصْل الثَّاني الذي تَنَاوَل الاتِّجاه الجَمالي في النَّقد الأدبي عند التوحيدي، وكَشَفَ عن تَمَيُّز آراء ونَظَرِيَّات التَّوحِيدي الجَمَالية، وكذلك في الفَصْل الثَّالث الذي تَنَاوَل الاتِّجاه المَوْضُوعاتي لديه، حيث تَمَيَّز البحث في مفاهيم الاتِّجاه المَوْضُوعاتي لدى التوحيدي، بالجِدَّة والأَصَالة من خلال المَقُولات النَّظرية التي طَرَحَها التَّوحيدي،

والْتَقَتْ مع ما تَحَدَّث به رُواد الموضوعاتية في الغَرْب، إضَافة إلى الدِّراسة المَوْضُوعاتية التَّطْبيقية التي أَجْرَيناها على مُؤَلَّفات التَّوحيدي، والتي تَنْفَرد بأنَّها تَنَاوَلت مُفَكِّراً وأديباً وناقداً عَربياً قديماً، وطَبَّقت مفاهيم المَوْضُوعاتية على ما كَتَبَه، في الوقت الذي قَامَت أَكْثَر الدِّراسات العَربية الحَديثة بِتَطْبيق مَقُولات المَوْضُوعاتية ومَفاهيمها على أدباء عَرب مُحْدَثين أو معاصرين.

أمَّا أَهَمُّ ما تَقْتَرحه تلك الدِّراسة وتُوصِي به، فهو مُواصَلة الكَشْف عَن كُنُوز التَّوحيدي المُتَنَوِّعة على ثلاثة مُسْتويات أو مَسَارات:

الأَوَّل: هو البحث الدَؤوب عنْ كُتُب ورَسَائل التَّوحيدي التي لمْ تَصِلْنا في مَخْطُوطات المَكْتَبات العَربية والأَجْنبية، لِتَسْلِيط الضَّوء على نِتاج الرَّجُل المَفْقود، والذي سَيُكْمِل بلا شَك صَفَحَات نَاصِعة من تاريخ ثَقافتنا وتراثنا العربي.

والمستوى الثاني: إعَادة تَحْقِيق بعض كُتُب التَّوحيدي المَطْبُوعة والمَنْشُورة وتَقْدِيمها بِثَوْبٍ جَديد للقارئ المعاصر، مثل كتاب (المُقابسات)، والذي حُقِّق مَرَّتين، ويَحْتَاج إلى إعادة تَحْقِيقه بِشَكْل عِلْمي ومَنْهجي يُسْهم في إلقاء المَزيد من الضوء على الفِكْر الفَلسَفي للتَّوحيدي من ناحية، وعلى السِّجال الفِكري والفلسفي العام في القَرن الرابع الهجري من خلال مقابسات هذا الكتاب، وإعادة تحقيق بعض رَسائل التَّوحيدي الصَّغيرة الحجم التي تَتَنَاوَل قضايا وموضوعات متنوعة.

أمَّا المستوى الثالث: فهو إجراء المَزِيد من الدِّراسات والبحوث على جَوانب فِكْرية وثَقَافية في مؤلفات التَّوحيدي المَنْشورة والمَطْبوعة والمُحَقَّقة في الجوانب السِّياسية والتَّاريخية والاجْتِماعية والنَّفسية والأدبية والتي تَظْهر بوضوح في كَثِير من نُصُوص التَّوحيدي، وتَكْشِف عن حَقائق ومَعلومات تَفَرَّد وتَمَيَّز بها التَّوحيدي.

ورجائي أنْ أكونَ قد وُفِّقْتُ وبَلَغْتُ ما أُريده، وحَقَّقتُ بَعْضاً مِمَّا كنتُ أَسْعَى إليه من أَهْداف وغَايات لهذا الدراسة..

نَسْأَلُ الله التَّوفيق، ولله الحَمْد مِن قَبْل ومِن بَعْد